الباب الثالث

الإسلام وتنمية الجهد الإنسانى وحمايته

الفصل الأول : القرآن والسنة يربطان حجم المسئولية بنمو الإنسان .

الفصل الثانى : حرص الإسلام على تقديم جهد الإنسان دون مواجهة بالمقدور والمكتوب .

الفصل الثالث : حماية حرية الاختيار الإنسانى وسعيه وعمله .

الفصل الأول

القرآن والسنة يعطيان وزناً حقيقيا للجهد الإنسانى اختياراً وسلوكاً

لا نبالغ إذا قلنا : إن القرآن الكريم تناول موضوع إيجابية الجهد الإنسانى بالنسبة للاختيار الحر بنصوص أكثر وأسلوب أصرح مما عالجت به السنة هذا الموضوع ، ولذلك سنكتفى بسياق نماذج من هذه النصوص القرآنية الكثيرة :

قال تعالى فى سورة الإنسان : ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:١ـ٣] .

وقال تعالى فى سورة البلد : ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:٣ـ١٠] .

وقال تعالى فى سورة الشمس : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٧ـ١٠] .

ونحن إذا ألقينا نظرة على هذه النماذج الثلاثة لاحظنا منذ الوهلة الأولى أن هذه النصوص ـ وإن اختلفت أساليبها ـ تصل بنا إلى نتائج محدودة واضحة تدفعنا إلى ضرورة الثقة فيما وهبنا الله من إمكانات نستطيع بها الوصول إلى ما نريد فى حرية كاملة ، وهذه الحرية التى وهبت لنا مع وسائلها المعنوية والمادية كانت ولا تزال موضوع البلاء والاختيار .

ففى سورة الإنسان : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ ، وفى سورة البلد :

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ .

وفى سورة الشمس : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ والنص هنا مركز جدا فهو شامل للنشأة وتهيئة وسائل الإدراك كذلك .

وفى سورة الإنسان : ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ .

وفى سورة البلد : ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ .

وفى سورة الشمس : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ وقد استعملناه مرتين لمعظم دلالته فى الموقعين اللذين تفرقا فى سورتى الإنسان والبلد .

وفى سورة الإنسان : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ .

وفى سورة البلد : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ .

وفى سورة الشمس : ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ .

وفى سورة الإنسان : ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ .

وفى سورة الشمس : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ .

وفى سورة البلد : ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ .

وفى سورة الإنسان ذكرت قضية الابتلاء صراحة : ﴿نَبْتَلِيهِ﴾ .

وفى سورة البلد فهم الابتلاء من السياق : ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ إلى قوله : ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ .

وفى سورة الشمس فهم الابتلاء كذلك بما يرادفه من السياق : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا

﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ .

فهذه معان خمسة ، ألحت على ذكرها النصوص القرآنية فى هذه النماذج وفى غيرها ، فلنمضى معها فى نموذج واحد وليكن من السورة التى سميت بأسم الإنسان نفسه :

١- الإنسان فى أطواره الأولى مجردا من كل حول وقوة حيث لم يكن شيئا مذكورا ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ .

٢- وضوح الحكمة منذ البداية فى الابتلاء ﴿نَّبْتَلِيهِ ﴾ .

٣- الوسائل المؤهلة لقضية الابتلاء ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ .

٤- تزويد الإنسان فوق هذه الوسائل عن طريق الوحى بالبيان والهداية ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ .

٥- الاختيار الحر عن طريق استعمال مجموعة القدرات هذه ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ .

مقارنة مقصودة تربط نمو الإنسان بنمو مسئوليته :

فى الآية الأولى : ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ .

سؤال يثير الانتباه بشدة الى الإنسان بعد أن جعله الله ﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ .

وهذا السؤال التقريرى بمثابة ترشيح لعقد مقارنة بين حال النطفة والأمشاج وبين الأطوار التى تلتها فى الكمال الإنسانى .

ما هى قدرات النطفة والأمشاج فى قضية اختيار الخير أو الشر ؟

ما هى قدرات النطفة هذه مقيسة بقدرات الصورة الإنسانية المتكاملة ؟

هذه المقارنة التى عقدها القرآن الكريم بين صورة الماء المهين ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ

مِن نُّطْفَةٍ ﴾ ، وبين الإنسان السميع البصير : ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ تجعل الفارق بين الصورتين أمرا بدهيا لا يقبل أبدا الاستخفاف بوزن القدرة الإنسانية وحرية اختيارها عند الابتلاء ﴿نَّبْتَلِيهِ ﴾ .

ولكن هل يوجد امتحان وابتلاء دون ثمرة تترتب عليه ؟ ومعنى ذلك أن الموقف الذى أختاره الإنسان لنفسه ، بعد منحه وسائل النظر والمعرفة من جهة ومنحه البيان والعلم من جهة أخرى سوف يتحمل لا محالة تبعته ومسئوليته .

ومن هنا كانت الآية الأخيرة موضحة حرية الإنسان فى اتخاذه القرار الذى يراه ، من واقع هذه الوسائل التى أتاحها الله له ثم زاده عليها البيان الواضح والنصح المستمر والطلب المتنوع المتمثل فى التكليف والإلزام بالأمر والنهى والترغيب والترهيب والتبشير والتحذير ، ولكن عليه فى النهاية أن يرتضى ويختار ، وذلك ما أجملته الآية الكريمة : ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ .

ويبقى أن نشير الى أنه ينبغى أن نتعرف بعناية الى معنى كلمة ﴿هَدَيْنَٰهُ ﴾ تجلية للموقف من أى لبس أو غموض ، ومعنى الكلمة فى هذا المقام هو : بيان طرائق الخير وطرائق الشر ، قال الإمام ابن كثير :

وقوله جل وعلا :

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ أى بيناه له ووضحناه وبصرناه به ، كقوله جل وعلا :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت:١٧] ، وكقوله جل وعلا : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ أى بينا له طريق الخير وطريق الشر ، وهذا قول عكرمة ومجاهد والجمهور ، ثم قال : وقوله تعالى : ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ منصوب على الحال من الماء فى قوله : ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ .

وهذا التأكيد على شرح كلمة ﴿هَدَيْنَٰهُ﴾ لبيان أنه ليس المقصود منها إحلال الهدى فى القلب كما درج عامة الناس على استعمالها مقصورة على ذلك فحسب ، وإنما معناها هنا مجرد التوضيح والتبيين للخير والشر ، وأعد النظر فى الأقوال التى اختارها الإمام ابن كثير لتفسير هذه الكلمة ، كما سبق بيانه .

ورغم أن هذا التوضيح اللغوى لا نقوم إلا بدور العرض له فقط ، وليس لنا فيه أى رأى خاص إلا أننا نبادر فنؤكد أن هذا التحديد لا يتنافى إطلاقا مع العقيدة الصحيحة التى يجب أن يتحلى بها كل مسلم ونعنى بها الاعتقاد الجازم فى أن الهدى ـ بمعنى هداية القلب والأعضاء للخير ـ هو هدى الله .

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] .

وللجمع بين الأمرين مكان آخر عند الحديث عن مشيئة الله سبحانه ومشيئة خلقه إن شاء الله .

وهكذا نجد أن القرآن الكريم قد أنتهج منهاجا مطردا فى تجلية جدية وإيجابية الحرية بالنسبة لمشكلة الاختيار الإنسانى للخير أو للشر فى مقام تحديد مسئولية الإنسان .

وركز القرآن الكريم على تزكية روح المسئولية عند الإنسان عن طريق إقناعه بدوره الفعال فى اختيار عمله ، وإرشاده الى أن هذا الدور جزء لا يتجزأ من تكوينه وفطرته ، وأن هذه الحرية التى وهبت له ، مستلزماتها من الإمكانات والقدرات أمر واقعى لا سبيل إلى المراء فيه .

بل وإن إنكارها جحود لواحدة من أعظم نعم الله على خلقه دون مسوغ لهذا الجحود فضلاً عن أنه لن يجدى شيئاً أولئك الذين ينتقصون من آلاء الله ونعمائه عليهم رغبة منهم فى التخلى عن المسئوليات والأمانات التى حُمِّلوها .

موقف السنة فى مراحل تنمية المسئولية الشخصية :

للسنة المطهرة فى الباب أحاديث كثيرة ترعى نمو وزن الجهد الإنسانى اتجاهاً ونية واختيارا ، وسلوكاً وعملا وتطبيقاً ، وقد اخترنا نماذج من الأحاديث تغطى ثلاث مراحل فى سيرة الحياة الإنسانية .

المرحلة الأولى : بداية النشأة .

والمرحلة الثانية :الحياة الإنسانية بعد البلوغ والتكليف .

والمرحلة الثالثة : ما أخبرت الأحاديث عن إعداده بعد نهاية الحياة جزاء وفاقا يراعى إلى أقصى حدود الرعاية الجادة الوزن الحقيقى للجهد الإنسانى فى إمكان اختياره للخير والشر .

أحاديث المرحلة الأولى عن النشأة :

قال رسول الله ﷺ : « **ما من مولود يولد إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه** »[1] .

روى أبو يعلى فى مسنده ، والطبرانى فى الكبير ، والبيهقى فى السنن عن الأسود ابن سريع أن رسول الله صلى الله علية وسلم قال : « **كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه** » .

وفى الحديثين إشارة واضحة لارتباط الهدى والإيمان والخير وأضدادها بأسباب التوجيه والتربية ، فالأسرة تؤثر فى أبنائها تأثيراً حقيقياً وكيفما كانت أسباب التأثير كانت النتيجة ، والمعنى أن هذه الاحتمالات التى يتعرض لها الطفل متكافئة الفرص أمام المؤثرات البشرية التى أشار إليها الحديث ، دون تحيز أو إكراه لحساب احتمال بذاته .

---

(١) متفق عليه .

والاحتمالات التى ذكرها الحديث أربعة : الإسلام إذا أحسن الأبوان رعاية الفطرة فى وليدهما ، واليهودية أوالنصرانية أو المجوسية إذا لم يحسنوا ، وهى احتمالات تتوقف على اتجاه بشرى يتخذه الوالدان ويختارانه دون ضغط أو قسوة ، ويلاحظ أن الاحتمال الرابع وهو « المجوسية » يشتمل على كل الإلحاد .

وعن جابر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه إما شاكرا وإما كفورا** » (١) .

وفى الباب أحاديث كثيرة بهذا المعنى ولا داعى للإطالة فى ذكر نصوصها .

أحاديث المرحلة الثانية حين يصبح الإنسان مكلفاً :

إذا ما أشتد عود المرء وأستوى نجد صيغا نبوية جديدة تلائم الموقف الجديد الذى تحمل فيه المرء مسئوليته بنفسه بعد أن كانت فى يد أولياء أمره .

عن أبى مالك الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : « **الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أوعليك . كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها** » (٢) .

وروى الطبرانى فى الكبير بسنده عن عمران أن رسول الله ﷺ قال : « **ما من قاض من قضاة المسلمين إلا ومعه ملكان يسددانه إلى الحق مالم يرد غيره ، فإذا أراد غيره وجار متعمدا تبرأ منه الملكان ووكلاه إلى نفسه** » (٣) .

وروى الإمام أحمد عن أبى هريره ﷺ عن النبى ﷺ قال : « **ما من خارج يخرج**

---

(١) أخرجه أحمد .

(٢) حديث صحيح : رواه الإمام أحمد والإمام مسلم والترمذى ، الجامع الصغير .

(٣) حديث حسن : الجامع الصغير للسيوطى .

إلا ببابه رايتان : راية بيد ملك ، وراية بيد شيطان ، فإن خرج لما يحب الله أتبعه الملك برايته ، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته ، وإن خرج لما يسخط الله أتبعه الشيطان برايته ، فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع إلى بيته » [١] .

وفى هذا الحديث الأخير تبدو إيجابية الاتجاه الإنسانى وسلوكه فى صورة واضحة من واجبنا أن نتصورها بنفس الصورة التى صورها لنا ﷺ : رجل يخرج من باب بيته ، وبالباب يقف ملك بيده راية حق وشيطان بيده راية سوء وباطل وكلاهما على أهبة الاستعداد كى يتبعا هذا الرجل ، فإن اتجه إلى الخير تبعه الملك برايته حتى يرجع إلى بيته . وإن اتجه إلى الشر تبعه الشيطان برايته حتى يرجع .

إن الحديث يقرر أن الأمر يتوقف على اختيار الرجل لما يريد ، دون أى تدخل مضاد لإرادته .

وقال ابن أبى حاتم عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان » ، ثم قرأ : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٨٦] [٢] .

وفى صحيح مسلم من رواية عياض بن حماد المجاشعى عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله ﷻ : إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » [٣] .

---

(١) أخرجه أحمد .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم وذكر السيوطى نص الحديث بدون إضافة الآية وقال : حديث صحيح أخرجه الترمذى والنسائى وابن حبان .

(٣) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم فى كتابه الجنة .

وهذا الحديث يصلح شاهدا لهذه المرحلة والتى قبلها ، أى مرحلة النشأة ، ومرحلة التكليف .

وروى الإمامان مسلم وأحمد عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « **ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة** » ، قالوا : وإياك يارسول الله ؟ قال : « **وإياى ، ولكن الله أعاننى عليه فلا يأمرنى إلا بخير** » [(١)] .

ويلاحظ هنا عصمة الأنبياء بما اقتضى هذا الاستثناء .

تنمية الأواصر الخيرة :

ونظرًا لأن تأثير الملائكة تأثير ترغيبى بحت أى لا يؤثر تأثيرا عمليا على المشيئة الإنسانية فى العادة الغالبة ، ومثل ذلك تأثير الشيطان ، ضماناً لبقاء الاختيار الحر النهائى للإنسان حتى يكون مسئولا عن اختياره مسئولية حقيقية فقد لاحظنا وجود أحاديث نبوية من أحاديث هذه المرحلة متخصصة فى توضيح العلاقة الطيبة والكريمة بالملائكة ، ويوصى هذا النوع من الأحاديث برعاية هذه الصلة بين الملائكة والمؤمنين عملا على تنمية أواصرها الخيرة النبيلة ، وقد اخترنا بعض هذه الأحاديث حتى نتنبه إلى غاياتها ومقاصدها . غير أنه يلاحظ أن هذا التأثير الترغيبى البحت يمكن بتنميته أن يرتقى إلى مرحلة فوق الترغيب ، وسيأتى توضيح ذلك عند الحديث عن المعونة والكرامة .

قال تعالى : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾

[الانفطار:١٠-١٢]

قال الإمام ابن كثير : يعنى وإن عليكم لملائكة حفظة كراما فلا تقابلوهم بالقبائح فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم .

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب صفات المؤمنين ، كما أخرجه أحمد فى عدة مواضع من مسنده وأخرجه الدارمى .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى قال : حدثنا على بن محمد الطنافسى قال : حدثنا وكيع قال : حدثنا سفيان ومسعر عن علقمة بن مرثد عن مجاهد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين : الجنابة ، والغائط فإذا أغتسل أحدكم فليستتر بجرم حائط أو ببعيره أو ليستره أخوه** » .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار فوصله بلفظ آخر فقال : حدثنا محمد بن عثمان ابن كرامة قال : حدثنا عبد الله بن موسى قال : عن حفص بن سليمان قال : عن علقمة بن مرثد قال : عن مجاهد قال : عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « **وإن الله ينهاكم عن التعرى فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم ، الكرام الكاتبين الذين لا يفارقوكم إلا عند إحدى ثلاث حالات :الغائط والجنابة والغسل فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بثوبه أو بجرم حائط أو ببعيره** » ، ثم قال : حفص بن سليمان لين الحديث وقد روى عنه واحتمل حديثه .

على أن هناك أحاديث فى الباب مثل حديث تعاقب الملائكة فى صلاتى الفجر والعصر ورفع حالة الصلاة إلى رب العزة وهو سبحانه أعلم بعباده :

روى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون وآتيناهم وهم يصلون** » [(١)] .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله فيه إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله فيمن عنده** » [(٢)] .

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه وأحمد .

وأخرج البخارى : « إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوما يذكرون الله ﷻ تنادوا هلموا إلى حاجتكم ، قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال : فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم ، ما يقول عبادى ؟ قال : يقولون : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك ، قال : فيقول : هل رأونى ؟ فيقولون : لا والله ما رأوك ، قال : فيقول : كيف لو رأونى ، قال : يقولون : لو رأوك كانوا أشدلك عبادة ، وأشد لك تمجيدا وتحميدا ، إلى أن يقول : فأشهدكم أنى قد غفرت لهم ، قال : يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة . قال : هم الجلساء لا يشقى جليسهم »[1] .

ومن مقاصد هذه النصوص كما ـ ذكرنا آنفا ـ أن تُبصِّر المسلم كى يحسن صلته بالملائكة الكرام الذين يعينونه على اختيار الموقف المحمود ، ومن هذه المقاصد أيضا أن رعاية الصلة بالملائكة لن تترك مجالا لوسوسة الشيطان ، وكثرة التذكير والوصاة برعاية هذه الصلة دليل على أنها لا تتم إلا باختيار حر ؛ لذا لزم التحذير من الغفلة عن رعايتها أثناء المسيرة فى الحياة .

على أن هناك ملاحظتين ينبغى أن تكونا فى موضع الاعتبار ، فمع تنوع المؤثرات على اتجاه الإنسان من الوالدين والأسرة والبيئة فى وقت الطفولة ، ثم من الشخصية ذاتها فى مرحلة الإدراك واستجابتها لنوازع الخير ممثلة فى موالاة الملائكة ، أو نوازع الشر فى موالاة الشياطين ، فإن الرسول ﷺ فى هذه الأحاديث سكت تماما عن موضوع المشيئة الربانية إذا استثنينا فطر المولود على الاستعداد للخير والحق والنقاء والطهر وهى مرحلة تسبق التمييز فضلا عن التكليف على أية حال .

وسكوت النبى ﷺ فى هذه الأحاديث عن موضوع المشيئة ؛ لأنه فى مقام تحديد المسئولية عن اختيار الاتجاه ، ولا يعنى هذا مطلقاً المساس بالمشيئة العليا وهيمنتها

---

(١) أخرجه البخارى والترمذى .

ونفاذها ، وإنما يعنى أن هذا النفاذ وتلك الهيمنة للمشيئة الربانية تعمل بطريقة لا تؤثر على تمام مسئولية الإنسان فى اختيار أعماله ، ومن هنا لم يكن هناك من داع لإقحام المشيئة عندما يراد تحديد المسئولية . ونكتفى هنا بهذه اللمحة السريعة حتى نستوفى هذا الموضوع حقه عند الحديث عن المشيئة إن شاء الله .

أما الملاحظة الأخرى فهى حرص القرآن الكريم على التصريح بان محاولات الشيطان التى أشارت إليها الأحاديث والأيات لا ترتقى إلى درجة التأثير العملى فى الإرادة الإنسانية بمثل قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم:٢٢] .

أحاديث المرحلة الثانية : « الآخرة » :

القول بحرية الاختيار الإنسانى قول فصل ، فهو قول القرآن والسنة .

وإذا كانت بعض الأحاديث النبوية صورت لنا القضية تصويرا واقعيا فى النشاط الدنيوى حيث يقف الملك برايته والشيطان برايته فى انتظار اختيار الإنسان لطريق الخير او طريق الشر .

فإن طائفة من الأحاديث لم تقف عند هذا الحد فى تصوير الموقف بل صرحت بأن الموازين العليا تظل ترعى هذا الاعتبار رعاية كاملة بالنسبة للناس جميعا مؤمنهم وكافرهم على حد سواء فى الجنة والنار

روى الإمام أحمد فى مسنده ، والحاكم فى المستدرك ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول : لولا أن الله هدانى فيكون له شكر ، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول : لو أن الله هدانى فيكون عليه حسرة** »[1] .

---

(١) رواه أحمد فى مسنده والحاكم فى المستدرك وهو حديث صحيح .

وقد ذكر ابن كثير عند تفسيره لقول الله سبحانه : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٢٧] ، بعض الأحاديث الشريفة تذكر منها ما يأتى :

قال الإمام عبد بن حميد رحمه الله فى مسنده حدثنا يونس بن محمد قال : حدثنا شيبان بن عبد الرحمن قال : عن قتاده قال : حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العبد إذا وضع فى قبره ، وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ماكنت تقول فى هذا الرجل ؟ قال : فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، قال : فيقال له : انظر مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة » ، قال النبى ﷺ : « فيراهما جميعا » ، قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له فى قبره سبعون ذراعا ، ويملأ خضرا يوم القيامة [١] .

وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد قال : عن ابن جريح قال : أخبرنى أبو الزبير أنه سأل جابر بن عبد الله عن قتانى القبر فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها ، فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه جاءه ملك شديد الانتهار فيقول له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فأما المؤمن فيقول : إنه رسول الله ﷺ وعبده ، فيقول الملك : انظر إلى مقعدك الذى كان لك فى النار قد أنجاك الله منه وأبدلك بمقعدك الذى ترى من النار بمقعدك الذى ترى من الجنة فيراهما كليهما . فيقول المؤمن : دعونى أبشر أهلى ، فيقال له : اسكن . وأما المنافق فيقعد إذا تولى عنه أهله فيقال له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدرى أقول كما يقول الناس . فيقال له : لا دريت هذا مقعدك الذى كان لك فى الجنة قد أبدلت مكانه من النار » ، قال جابر : فسمعت النبى ﷺ يقول : « يبعث كل عبد فى

---

(١) متفق عليه .

القبر على ما مات ، المؤمن على إيمانه والمنافق على نفاقه »[١] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر قال : حدثنا عباد بن راشد قال : عن داود بن أبى هند قال : عن أبى نضرة قال : عن أبى سعيد الخدرى قال : شهدنا مع رسول الله ﷺ جنازة فقال رسول الله ﷺ : « يأيها الناس ، إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها ، فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه جاءه ملك فى يده مطراق من حديد فأقعده فقال : ما تقول فى هذا الرجل ؟ فإن كان مؤمنًا قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فيقول له : صدقت ، ثم يفتح له بابا إلى النار فيقول : كان هذا منزلك لو كفرت بربك ، فأما إذ آمنت فهذا منزلك فيفتح له بابا إلى الجنة فيريد أن ينهض إليه فيقول له : اسكن ، ويفسح له قبره ، وإن كان كافراً أو منافقاً يقول له : ما تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدرى سمعت الناس يقولون شيئاً فيقول لا دريت ولا تليت ولا اهتديت ، ثم يفتح له بابا إلى الجنة فيقول هذا منزلك لو آمنت بربك ، فأما إذ كفرت به فإن الله ﷻ أبدلك به هذا ، فيفتح له بابا إلى النار ، ثم يقمعه قمعة بالمطراق ، فيصيح صيحة يسمعها خلق الله عز وجل كلهم غير الثقلين ، فقال بعض القوم : يارسول الله ، ما أحد يقوم عليه ملك فى يده مطراق إلا هيل عند ذلك ؟ » ، فقال رسول الله ﷺ : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت »[٢] .

وهكذا نرى السنة المطهرة من خلال النماذج الثلاثة التى قدمناها مستمرة ومطردة فى إعطاء الجهد الإنسانى وزنا حقيقيًا . ففى النشأة والطفولة يتحمل تبعة هذا الجهد المؤثر الكبار من أولياء أمور الناشئة ، حيث يولد المولود على الفطرة ، والذين يتولون أمره هو المسئولون عن إقرار الاتجاه الذى يختارونه للناشئين .

---

(١) إسناد صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٢) وهذا أيضا إسناد لا بأس به فإن عباد بن راشد التميمى ، روى له البخارى مقرونا ولكن ضعفه بعضهم ، ابن كثير ج ٢ ص ٥٣٣ .

ثم يأتى مرحلة البلوغ ليحمل كل مسئوليته بنفسه ، وللخير دعاته ممثلين فى الملائكة وأوليائهم من الناس ، وللشر دعاته ممثلين فى إبليس وجنوده من شياطين الجن والإنس .

لكن يظل الاختيار بيد الإنسان ، وعليه وحده تقع تبعة ما يختار ، ومن هنا جاءت الأحاديث الكثيرة تبين منافع موالاة الملائكة وفوائدها ، وتحذر من موالاة الشياطين ومخاطرها ، ثم تركت للإنسان مسألة اتخاذ القرار : « **فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها** » .

ثم جاءت أحاديث المرحلة الأخيرة كى توضح للناس الجدية الكاملة فى وزن اختيارهم عند الحساب فى اليوم الآخر ، إلى درجة مغرقة فى الحيدة تأكيدا لمعنى العدل والحق فيما يترتب على نعمة الحرية التى منحت للإنسان في الدنيا ، فللخير مكانه في الجنة إذا ما اختاره الإنسان ، وللشر مكانه في النار إذا ما اختاره نفس الإنسان . إن مجرد العلم الإلهي بما كان وما هو كائن وما سيكون لم تذكره أحاديث هذه المرحلة كى لا يترتب على ذلك إلغاء أحد المقعدين ، ونعنى به ذلك المقعد الذى لن يستعمل سواء في النار أو في الجنة ، بل ظل المقعدان على أهبة الاستعداد لاستقبال كل إنسان إذا ما أساء أو أحسن . ويظل المكانان المهيئان في الجنة والنار حجة بالغة تستثير عرفان المحسن وشكره لفضل ربه ، وتقرع المسيء بالندم والحسرة على تفريطه وسوء ما اختاره لنفسه ، حين يرى كل امرئ مقعديه في مكان النعيم ومكان العذاب بعيني رأسه في عالم الحق حيث تتجلى الحقائق بلا زيف ولا خداع .

والخلاصة التى نستطيع الخروج بها بيقين من هذه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة هى : أن القرآن والسنة معا متفقان على أن الإنسان هيأه الله سبحانه بقدرات حقة ذات صلاحيات مزدوجة لقبوله الخير أو الشر وفق الموقف الذى يختاره الإنسان ويرتضيه ، وأن أي إنكار لهذه الصلاحيات والقدرات التى تحدثت

عنها آيات القرآن والسنة أمر يتعارض مع هذه النصوص الشريفة ولا يتفق مع المصدرين الرئيسين من مصادر الإسلام وهما القرآن الشريف والسنة المطهرة .

*****

الفصل الثاني
تقديم الوحي للجهد الإنساني
دون مواجهة بالمقدور والمكتوب

تقديم الوحى للجهد الإنساني في مجال المسئولية عند ذكر المقدور والمكتوب :

التركيز صريح في كثير من نصوص الوحى على تقديم الجهد الإنساني في مجال المسئولية على ذكر المقدور الذي كتب على العباد ، والقرآن والسنة في هذه النصوص يضعان الاختيار البشرى عند جهد الطاعة أو المعصية في مكان السبق والتقدم وضعًا حقيقيًا ومحكمًا لا مجال فيه لصرف النص عن ظاهره ، أو تأويله بمعنى آخر غير قريب ، ولا يتبادر إلى الذهن أن النصوص المعصومة تستبعد بدهية من بدهيات العقيدة ، ونعنى بها تقديم مشيئة الله سبحانه على كل مشيئة أو اختيار ، فحاشا لله أن يكون الأمر كذلك . وإذن فما هو المخرج ؟

الواقع أنه لا يوجد مأزق حتى نبحث عن مخرج ، فاعتبارات المقاصد في النصوص جدّ مختلفة ، والمقصود هنا في النصوص التي سيأتى ذكرها الجهد الإنساني واختياره الحر في مجال المسئولية ، وشتان بين هذا المقصود – أي المشيئة المسئولة وبين المشيئة الإلهية التي يتصف بها الخالق الذي يملك حق الحساب والسؤال ، وإذا اختلفت الاعتبارات فأى نص في مأمن من الحرج ، وقد وضحت آيات القرآن اختلاف الاعتبارات التى يتبعها اختلاف الإطلاقات في ثقة وأمان بمثل قوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٧٨ ـ ٧٩] .

وسيأتى توضيح هذه القاعدة في العلاقة بين المشيئتين إن شاء الله .

وعليه نقول : إن النصوص التي سيأتي ذكرها حين قدمت المشيئة الإنسانية ووضعتها في موضع السبق كانت مراعية لاعتبارات المسئولية المخلوقة التي نيطت بالإنسان ، وهي حين ذكرت المكتوب أو المقدور كانت مراعية لاعتبارات الجزاء التي تأتي جزاءً وفاقًا لما قدمت يد الإنسان ، وسر من أسرار الإعجاز في الوحي أنه حق ، وفي الحق قوة وثقة وطمأنينة ، والقوي الواثق المطمئن لا يخاف ولا يخشى مما نخافه نحن المخلوقين ونخشاه ، فهو يعطى كل اعتبار حقه ، ولو كان هذا الحق حقًا مُنحه المخلوق ـ كنعمة المشيئة في الإنسان ـ فما أبعدها بعوارض الحادثات أن تطاول المشيئة المعطية والمانحة والخالقة ، ومن هذا القبيل ، ما ألمحنا إليه إلماحًا خاطفًا قبل قليل من السكوت عن علم الله سبحانه بما كان وما سيكون عند الحديث عن رؤية كل إنسان . مقعديه في الجنة والنار مع القطع بأن واحدًا منهما سبق في علم الله أن صاحبه لن يسعى إليه ، لكنها اعتبارات تعالجها نصوص من الوحي كانت خاصة بإعطاء الجهد الإنساني وزنًا حقيقيًا ، فاطردت بذلك دلالة النصوص ميلادًا ونشأة وإدراكًا وتكليفًا ثم تجاوزت في اطرادها واستمرارها ذلك كله إلى مرحلة الجزاء في الآخرة ، وحكت النصوص قصتها للناس وأنبأتهم بها حتى لا تبقى لأحد على الله حجة ، فكانت قصة الحق والحكمة كما هى قصة العدل والرحمة .

وبعد هذا التوضيح الضرورى يمكننا أن نبدأ في ذكر النصوص التى وضعت الجهد البشرى في مكان السبق والتقدم .

القرآن الكريم :

الملاحظ دائمًا أن نصوص القرآن الكريم في موضوعات كهذه هى أصرح النصوص وأقواها دلالة على المعنى المراد ، وأشدها نفاذًا إلى الهدف المقصود ، وهذا

أمر طبيعي ، فالله سبحانه هو الخالق لعباده ، والكلمة الفصل هي ولاشك كلمته .

ويتجلى هذا الوضوح في وضع الجهد البشري والاختيار الإنساني وضعًا مقدمًا في آيات كثيرة ، نكتفي ببعضها خوف الاستطراد والإطالة .

قاعدة قرآنية عامة وحاسمة :

في سورتي الأنفال والرعد آيتان ، تكاد تتحد معانيهما بل وألفاظهما .

أولاهما قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال:٥٣] .

وثانيتهما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١] .

ومع أن هذين الجزئين من الآيتين الكريمتين كافيان في الدلالة الصريحة على مبتغانا فضلاً عن تأكيد الدلالة في الآيتين بإن ، وفي الأولى منهما باسم الإشارة ثم بالنفي مع أداة الاستثناء فيهما ، بالإضافة إلى صيغة الشرط والجواب .

مع ذلك كله فلابد من نظرة في السياق العام للآيتين لنرى دلالة السياق كله ، وتلاحمه القوي في تقرير مبادرة الاختيار الحر في الإنسان كضرورة لتحمله التبعة التي نيطت به . وهذا هو السياق في آية الأنفال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنفال:٥٠ ـ ٥٤] .

فآل فرعون ، والذين كانوا قبلهم ، والذين جاءوا بعدهم ، أخذوا بما قدمت

أيديهم ، وحاشا أن يكون من جانب الله أى ظلم . وإنما كانوا هم الظالمين وكان الإهلاك والأخذ بسبب ما اقترفوه وقدموه من ذنوب .

في هذا السياق يتأصل عموم القاعدة الحاسمة : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ ، فالمبادرة إذن من الإنسان وليس الله بظلام للعبيد .

فإذا توجهنا إلى سورة الرعد نستلهم سياقها حول الآية الكريمة وجدنا ما يأتى : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:٦-١١] .

فبادرة السوء في استعجالهم بالسيئة واضحة كل الوضوح في قوله تعالى : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ ، وذكر من سبقهم من الأمم التى تعرضت للعقوبة بمبادرات مثل هذه المبادرة السيئة واضحة في قوله تعالى : ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ ، ونفي الظلم عن الله بإثبات المغفرة له مع ظلم الناس وقدرته سبحانه وتعالى على شدة العقاب .

ومطالبة الكافرين النبى ﷺ بإنزال آية مع وجود الآيات الكثيرة ، ثم حصر مهمة النبي ﷺ في الإنذار والهداية ، وإثبات العلم والحكمة لله تعالى في خلقه للإنسان ، مع إحاطة علمه بالسر والجهر والغيب والشهادة ، وتفضله سبحانه بحفظ عباده بالملائكة .

في هذا السياق الملئ بالرحمة والرعاية والإنذار والهداية من جانب المولى عز وجل تأتى مبادرات بعض الخلق في الحاضر والماضى متمردة جاحدة ، كما تأتى أحيانًا طبيعة شاكرة ، وهنا تأتى القاعدة شاملة .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ .

وتأتى النصوص القرآنية كالغيث ترى وفق هذه القاعدة ، وهذه بعض الأمثلة :

قال تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] .

وقال تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ .

[الحشر: ١٩]

وقال تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ .

[التغابن : ٥ ـ ٦]

وقال تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف:٥] .

وقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧] .

وقال تعالى : ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ﴾ [البقرة:١٠] .

وقال تعالى : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:١٢٤، ١٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النحل:١٠٧] .

وقال تعالى : ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم:٧٦] .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد:٧] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴾ .

[محمد:١٤]

إن هذه الأمثلة من النصوص التى سقناها مقتضبة على هذه الصورة لها سياقها الذى وردت فيه والذى يمكن الرجوع إليه في كتاب الله دون عناء ، لإجراء النمط الذى أجريناه في آيتي الأنفال والرعد السابقتين .

كما أن لهذه النصوص أضرابًا وأشباهًا كثيرة يحتاج سردها إلى إطالة شديدة .

بيد أن هذا القدر الموجز كاف في الدلالة على ما نريد .

السنة المطهرة :

١ ـ جاء في الحديث الصحيح عن الإمام مسلم في رواية أبى ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « **إن الله تعالى يقول : يا عبادي : إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا ، يا عبادي : إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، من وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه** » [(١)] .

٢ ـ وفي الحديث القدسي الذى رواه البخارى : « **إذا تقرب إلي العبد شبرًا تقربت إليه ذراعًا ، وإذا تقرب إلي ذراعًا تقربت منه باعًا ، وإذا أتانى مشيًا أتيته هرولة** » [(٢)] .

٣ ـ وقال الله تعالى : « **إذا أحب عبدى لقائي أحببت لقاءه ، وإذا كره لقائى كرهت لقاءه** » [(٣)] .

٤ ـ وقال الله تعالى في حديث آخر : « **يا ابن أدم قم إلي امش إليك ، وامش إلي**

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه مالك والبخارى والنسائى عن أبى هريرة .

أهرول إليك »[١] .

٥ـ وقال الله تعالى : « يا ابن آدم : لا تعجز عن أربع ركعات في أول النهار ، أكفك آخره »[٢] .

٦ـ أوحى الله تعالى إلى داود : « ما من عبد يعتصم بى دون خلقى أعرف ذلك من نيته فتكيده السموات بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجًا . وما من عبد يعتصم بمخلوق دونى أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماء بين يديه ، وأرسخت الهوى من تحت قدميه . وما من عبد يطيعنى إلا وأنا معطيه قبل أن يسألنى غافر له قبل أن يستغفرني »[٣] .

٧ـ وفي حديث قدسى آخر قال الله تعالى : « أنا عند ظن عبدى بي فليظن بى ما شاء »[٤] .

هذه سبعة أحاديث تتسم بالوضوح والصراحة في تحديد مسئولية الإنسان بوضع الاختيار البشري في المكان السابق المقدم ـ في إطار التحفظ الذى سبق تقريره من حيث الاعتقاد الراسخ في هيمنة المشيئة الربانية ونفاذها في كل جزئية من جزئيات الاختيار الإنساني الحر ـ ويمكننا بعد هذا التحفظ المكرر أن نستلهم هذه النصوص بعض ما تقدمه لنا من قواعد .

ففي الحديث الأول ثلاث عبارات هى :

« يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا » .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده .

(٢) حديث صحيح : رواه أحمد وأبو داود عن تميم بن همام ، ورواه الطبراني عن النواس ، الجامع الصغير .

(٣) ابن عساكر عن كعب بن مالك ـ حديث حسن ـ الجامع الصغير .

(٤) حديث صحيح رواه الطبراني في الكبير والحاكم عن واثله ـ الجامع الصغير .

« يا عبادى : إنما هى أعمالكم أحصيها لكم » .

« فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

ودون الحاجة إلى تأمل ، نجد العبارة الأولى تقرر قاعدة العدل المطلق الواجب لله سبحانه ، فهو سبحانه قد حرم الظلم على نفسه بل جعله حرامًا بين عباده ونهاهم عنه ، وهذه القاعدة تقطع الطريق على أية شبهة تطوف بالأذهان حول حرية الاختيار التى منحها الله للإنسان .

وتأتى العبارة الثانية لتخصص العموم في قاعدة العدل الإلهي بمحل الشاهد الذي نعنيه ، وهو الاختيار الحر المسئول للأعمال ، ويأتى هذا التخصيص قويًّا وحاسمًا بأداة الحصر مع الإحصاء : « إنما هي أعمالكم أحصيها لكم » أى أن نفاذ المشيئة الربانية لن يكون بحال على حساب كمال آخر واجب لله سبحانه وهو العدل المطلق ، وما يصيبكم من نتائج المسئولية محصور في اختياركم أنتم للخير أو الشر الذى يحصيه ربكم عليكم .

ومن هنا جاءت العبارة الثالثة مؤكدة لمسئولية الإنسان في اختياره للنوعية التى يرتضيها :

« فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

فهل هناك بيان أو توضيح أصرح مما وردت به نصوص الوحى ، كى تبقى مسألة الاختيار الحر في منأى عن التشكيك والجدل ؟

وماذا نستفيد أو نفهم من هذا النص غير ما تقرر ؟

فإذا نحن ألقينا نظرة على الحديث القدسي الثانى لم نجد عناء في إدراك الموقع المقدم الذى وضعت فيه مسئولية البشر .

« إذا تقرب إلىَّ عبدى شبرًا تقربت إليه ذراعًا » .

« وإذا تقرب إليَّ العبد ذراعًا تقربت منه باعًا » .

« وإذا أتانى يمشى أتيته هرولة » .

فالجزاء متوقف على اختيار العبد أولاً ، ومع تقرير الجزاء الأوفى في مقابلة البداية الحسنة مهما كانت قليلة ، فإن مكضاعفة المستوى في الجزاء يتوقف على درجة البداية التى اختارها الإنسان ، مع صياغتها فيما يشبه الشرط والجواب ، فاقتراب العبد شبرًا جزاؤه يضاعف إلى الذراع ، والذراع جزاؤه الباع ، والمشى جزاؤه الهرولة .

وما يقال في هذا الحديث يقال في الثالث والرابع والخامس :

« إذا أحب عبدى لقائي ، أحببت لقاءه ، وإذا كره لقائى كرهت لقاءه » .

« قم إليَّ أمش إليك ، وأمش إليَّ أهرول إليك » .

« لا تعجز عن أربع ركعات أول النهار ، أكفك آخره » .

ويلاحظ في هذا الحديث الأخير ـ فضلاً عن سبق العمل الصالح أول النهار عن الجزاء آخره ـ أن كلمة لا تعجز تنفى صراحة أية شبهة تطعن في حرية الإنسان واختياره .

أما الحديث السادس ففيه :

« ما من عبد يعتصم بى دون خلقى أعرف ذلك من نيته فتكيده السموات بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجًا ، وما من عبد يعتصم بمخلوق دونى إلا قطعت أسباب السماء بين يديه » .

فالبداية هنا أيضًا من الإنسان سواء في الخير أو الشر ، واختياره لهذه البداية هو السبب الأصيل في الجزاء المناسب لاختياره .

أما الحديث السابع فقد أصَّل قاعدة عامة وشاملة لمثل هذه الأمثلة التى ساقتها الأحاديث الستة وغيرها . حديث جاء فيه : « أنا عند ظن عبدى بي ، فليظن بى ما

شاء » ، فالبداية أيا كان لونها ونوعها تنبع من اختيار العبد ويأتى بعدها ما يناسبها من جزاء .

مجموعة أخرى من الأحاديث النبوية :

إذا كانت النصوص القدسية السابقة بيَّنت لنا بوضوح مكان الاختيار للأعمال كما تقتضيه العدالة في تحميل الإنسان المسئولية عن اختياره ، فإن نفس هذه الدلالة تعطينا إياها النصوص التالية من باب أولى .

فعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « **لله أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم إذا سقط على بعيره وقد أضله بأرض فلاة** » [١] .

فمع هذا النوع الخاص من الانتظار ومع شدة الفرح الذي يصاحب عودة البعير الضال في أرض فلاة تبدو لنا صورة الذين لايثوبون من العباد السادرين في ضلالهم وهم لايبدءون الخطوة الأولى فلا يفرح الله سبحانه بهم ، ومع تصوير شدة الفرحة بالتائبين في الحديث الشريف بهذه الصورة القوية فإن الأمر يتوقف على أن يختار العبد طريق العودة إلى الله أولاً .

وتصل رحمة الله بعباده « فضلاً عن عدالته » إلى درجة تسقط معها كل المعاذير ، إذ منح للإنسان فوق قدرة الاختيار الحر البصيرة والقرآن .

فعن النواس أن رسول الله ﷺ قال : « **ضرب الله تعالى مثلاً صراطًا مستقيمًا ، وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعًا ولا تتعوجوا ، وداع يدعو من فوق الصراط ، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تلجه** .

---

(١) متفق عليه

فالصراط الإسلام ، والسوران حدود الله تعالى ، والأبواب المفتحة محارم الله تعالى ، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى من فوق واعظ الله في قلب كل مسلم »[١] .

وقال تعالى : ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ .

[الرحمن:١ـ٤]

فإذا تجاوز الإنسان كل هذه النعم وتورط في استعمال موهبة الاختيار الحر استعمالاً غير حسن ، فإن الله سبحانه وهو الرحمن يهب هذا العبد فرصة أخرى ليختار مبادرة جديدة وحسنة لتمحو الآثار السيئة التي سبقتها .

فعن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال : « صاحب اليمين آمر على صاحب الشمال ، فإذا عمل العبد حسنة كتبها بعشر أمثالها ، وإذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال له صاحب اليمين : أمسك فيمسك ست ساعات فإن استغفر الله منها ، لم يكتب عليه شيئًا ، وإن لم يستغفر ، كتب عليه سيئة واحدة »[٢] .

وفيما لو كتب السيئة فعلاً وكانت من أخطر السيئات وأشدها فإن الإسلام يستنهض مشيئة الخير في الإنسان مرة أخرى ، ويجعلها قادرة على التخلص مما أصابها من محنة عن طريق الإرادة نفسها والاختيار الصالح مرة أخرى .

ومن هذا القبيل ما رواه ابن جرير عن ابن عباس قال : كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم ندم فأرسل إلى قومه : أن سلوا رسول الله ﷺ : هل لى من توبة ؟ فنزلت : ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٨٦ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ

---

(١) رواه أحمد في المسند والحاكم في المستدرك ، الجامع الصغير ، صحيح .

(٢) رواه الطبراني في الكبير ؛ والبيهقى في شعب الإيمان وهو حديث صحيح الجامع الصغير .

ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٨٦ـ ٨٩] ، فأرسل إليه قومه فأسلم [١] .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا جعفر بن سليمان قال حدثنا حميد الأعرج عن مجاهد قال : جاء الحارث بن سويد فأسلم مع النبى ﷺ ، ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه فأنزل الله فيه : ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ الآيات .

قال : فحملها إليه رجل من قومه فقرأ عليه فقال الحارث : إنك ـ والله ما علمت ـ لصدوق ، وإن رسول الله ﷺ لأصدق منك ، وإن الله لأصدق الثلاثة ، قال : فرجع الحارث فأسلم فحسن إسلامه [٢] .

بل وتكشف السنة المطهرة للعبد عن الأسلوب الفعال في تربية ملكة الإحسان والإجادة في استعمال موهبة الحرية هذه وترشيدها وتنميتها ، مبينًا كيف تكون البداية التى تفضى إلى سلسلة من النتائج المحببة المرضية وتحذره في نفس الوقت من الأسلوب المضاد الذى يفضى إلى نتائج وخيمة وعكسية ليست في مصلحة الإنسان سواء في الدنيا أو في الآخرة .

عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « **عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا ، وإياكم والكذب فإنم الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند**

---

(١) رواه النسائي والحاكم وابن حبان من طريق داود بن أبى هند به ، وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٢) تفسير ابن كثير سورة آل عمران .

الله كذابًا »[1] .

ولعلنا نلاحظ هنا أن النص الشريف قد وضع أيدينا على مفتاح بعض الأسرار العليا بصفة كلية إجمالية كى لا تصبح فوق مستوى الإدراك البشرى وذلك في قوله ﷺ : « حتى يكتب عند الله صديقًا » بعد مراحل سابقة ، كالمبادرة الخيرة الحسنة باختيار الصدق « عليكم بالصدق » وإفضاء الصدق إلى مرحلة البر « فإن الصدق يهدى إلى البر » والبر كلمة واسعة المدلول : ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧] .

ويلاحظ بوضوح أن البر شمل جوانب العقيدة والعبادة والسلوك والأخلاق في هذه الآية الكريمة كما قررت الآية صراحة الصلة المباشرة بين البر والصدق بقوله تعالى : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ .

ومن هنا كانت الفقرة التالية للبر في الحديث النبوى الشريف متناسبة مع هذا الشمول في قوله ﷺ : « وإن البر يهدى إلى الجنة » .

لكن هذه النتيجة تسبقها مرحلة الثبات على الصدق بعد مرحلة اختيار الصدق نفسه وهذه المرحلة هى المعنية بقوله ﷺ : « وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق » ، بعد ذلك كله تأتى العبارة النبوية الكريمة « حتى يكتب عند الله صديقًا » ومعروف ما تفيده « حتى » وتدل عليه .

وإذن فمرحلة الكتابة جاءت في الحديث الشريف بعد عدة مبادرات اختارها

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ، والبخارى في الأدب ومسلم في صحيحه والترمذي ، الجامع الصغير .

الإنسان لنفسه طواعية دون مصادرة لهذا الاختيار ، وتلك هى بعض الحكمة التى من أجلها ذكر النبي ﷺ الصورة المقابلة لاختيار الصدق والثبات عليه وتحريه ، وهى اختيار الكذب والثبات عليه وتحريه ، مسوقة بنفس النسق مرحلة مرحلة .

ومعنى ذلك بكل بساطة أن طرفي هذه القضية ، أمران ممكنان في مجال مسئولية الإنسان وقدرته على حرية الاختيار لأى منهما .

ومثل هذا الحديث ما رواه ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال : « **عمل الجنة الصدق ، وإذا صدق العبد بر ، وإذا بر آمن وإذا آمن دخل الجنة ، وعمل النار الكذب ، وإذا كذب العبد فجر ، وإذا فجر كفر ، وإذا كفر دخل النار** » (١) .

وعلى هذا الضوء يمكننا أن نفهم مثل الحديث الذى رواه سهل عن سعد أن رسول الله ﷺ قال : « **عند الله خزائن الخير والشر ، مفاتيحها الرجال ، فطوبى لمن جعله الله مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر ، وويل لمن جعله الله مفتاحًا للشر مغلاقًا للخير** » (٢) .

ومثل ما رواه النسائى والحاكم عن شداد من قوله ﷺ : « **إن تصدق الله يصدقك** » (٣) ، بل وما يزال الإسلام يُطمع المسلم في مزاولة نعمة المشيئة والاختيار ويحضه على الإقدام على ذلك عن طريق إخباره بأنه قادر وبمنتهى السهولة على تغيير اتجاهه إلى حيث يريد ، مرغبًا إياه في اختيار الجنة ، محذرًا إياه من الاتجاه إلى النار ، فكلاهما قريب وفي متناول الاختيار .

قال الإمام أحمد حدثنا ابن نمير ووكيع كلاهما عن الأعمش بسنده قال : قال رسول ﷺ : « **للجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك** » (٤) .

---

(١) رواه أحمد في مسنده وهو حديث حسن .

(٢) حديث صحيح ، رواه الطبرانى في الكبير ، والضياء ، الجامع الصغير .

(٣) حديث صحيح ، الجامع الصغير .

(٤) انفرد البخارى بإخراجه في الرقاق من حديث الثورى عن الأعمش به .

ففي هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان ، ولهذا حثه الله تعالى على المبادرة للخيرات فقال تعالى : ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد:٢١] ، كما قال تعالى : ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران:١٣٣] (١) .

ثم نرى النصوص النبوية تدين العجز وتنفر منه وتلوم عليه . فقد قال ﷺ فيما رواه شداد بن أوس : « **الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني** » (٢) .

وقد ضرب رسول الله ﷺ المثل لأمته ببعض أصحابه من ذوى الكفاءات الممتازة في استعمال موهبة الاختيار من أصحابه .

فقد روت السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « **عمار ، ما عرض عليه أمران إلا اختار الأرشد منهما** » (٣) .

وفي الجانب المقابل لم يترك سيدنا رسول الله ﷺ أولئك الذين يغمطون موهبة الاختيار حقها ، فيقفون موقف العجز والحيرة حيث يختلط عليهم معنى التفويض لله سبحانه بهذه السلبية التى يأباها حسن التوكل وصدق الإيمان ، ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد عن عوف بن مالك أنه حدثهم أن النبى ﷺ قضى بين رجلين : فقال المقضى عليه لما أدبر : حسبى الله ونعم الوكيل ، فقال النبى ﷺ : « **ردوا على الرجل** » فقال « **ما قلت ؟** » قال : قلت حسبى الله ونعم الوكيل ، فقال النبى ﷺ : « **إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمر فقل : حسبى الله ونعم الوكيل** » (٤) .

---

(١) ابن كثير ، ج٤ ، ص٣١٣ .

(٢) حديث صحيح « رواه الإمام أحمد في المسند ، والترمذي وابن ماجه والحاكم ، الجامع الصغير » .

(٣) حديث حسن رواه ابن ماجه ، الجامع الصغير .

(٤) وأخرجه أيضًا أبو داود وأخرجه النسائي . وفي إسناده (بقية بن الوليد) وفيه مقال ، ولكن تحمله الآيات والأحاديث والاتجاه العام للنصوص .

والمعنى المستفاد من الحديثين الأخيرين أن رسول الله ﷺ لا يكتفى بإثبات المبادرة الإنسانية في تحمل مسئوليتها ، وإنما يطلب من كل مسلم ـ فوق ذلك ـ أن يستثمر هذه النعمة ، ويحسن استعمالها ما استطاع إلى الإحسان من سبيل ـ كما كان يفعل عمار ﷺ ـ ويتجنب في نفس الوقت إهمالها والتفريط فيها تحت أية راية براقة كالتستر بصورة من صور التفويض لله سبحانه أو التوكل عليه جل وعلا ، فقد يكون هذا الزعم عجزًا يستتبع لوم الله لفاعله . وإنما التوكل الصحيح هو في الاعتماد على الله عز وجل واحترام فطرته وسنته في الأخذ بالأسباب ، وفي مقدمتها حسن الاختيار لأرشد الأمور الممكنة التى سخرها الله للإنسان بعدله وفضله .

*****

الفصل الثالث
حماية حرية الاختيار الإنساني وسعيه وعمله

أ ـ التيسير :

لابد من تحديد مقصودنا من كلمة « التيسير » هذه حتى لا تختلط باليسر الذى تتصف به الأحكام الإسلامية بصفة عامة ، والوارد في مثل قوله تعالى : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥] ، ذلك أن اليسر بهذا المعنى ظاهرة في المنهاج الإسلامي الذى سلف الحديث عنه ، فنحن نتحدث هنا عن الإنسان وفطرته ، وخصائص الحرية التى منحها الله له حتى يكون أهلاً للمسئولية .

وحديثنا في هذه المرحلة عن ظاهرة بارزة من ظواهر الاختيار الحر وهى « ضمان هذا الاختيار الحر من لدن واهبه للإنسان وهو الله ﷻ » ، وقد أطلقنا على هذه الظاهرة ـ التى تعطينا فوق حرية الاختيار ضمانًا لهذه الحرية ـ « ظاهرة التيسير » ، أى أن الإنسان إذا اختار شيئًا وصمم على فعله ، فإن السنة المعتادة أن يجد المساعدة والتيسير من الله لتحقيق ما اختاره وأراده .

وهذا المصطلح مصطلح غير مبتدع ، فقد سبق أن أشرنا إلى ضرورة الالتزام في هذه القضايا بنصوص الوحى .

وإذن فهذا المصطلح ـ أي التعبير عن هذه الظاهرة بكلمة التيسير ـ مأخوذ من القرآن والسنة كما سيتبين لنا بعد قليل ، ولن يضير الحقيقة في شئ أن الناس قد غفلوا عن هذا المصطلح ، بل ربما اتجهوا به وجهة تخرجه عن دائرة الحرية إلى دائرة الجبر والإلزام ، مع أنه كما قلنا : ضمان هام للحرية ذاتها .

لن يضيرنا هذا أو ذاك ، ما دام البحث يؤدى بعض واجبه في تجلية هذه الحقيقة

كما أوردتها نصوص الوحى قرآنًا وسنة .

نصوص الوحى :

نص نبوى صحيح جمع بين القرآن والسنة : روى الإمام البخارى عن على بن أبى طالب ﷺ قال : كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة فقال : « **ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار** » فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكل ؟ فقال : « **اعملوا فكل ميسر لما خلق له** » ثم قرأ : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥ـ١٠] (١) .

ولهذا الحديث صيغة أخرى نصها كالآتى :

روى الإمام البخارى عن على بن أبى طالب ﷺ : كنا في جنازة في بقيع الغرقد ، فأتانا النبي ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال : « **ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار ، وإلا قد كتب شقية أو سعيدة** » ، فقال رجل : يا رسول الله ، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، وأما من كان منا من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ، قال ﷺ : « **أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة** » ، ثم قرأ : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ الآية (٢) .

وعن جابر بن عبد الله أنه قال : يا رسول الله أنعمل لأمر قد فرغ منه أو لأمر نستأنفه ؟ فقال :« **لأمر قد فرغ منه** » فقال سراقة : ففيم العمل إذا ؟ قال رسول الله

---

(١) البخارى طبعة سعود ، ج٦ ، ص١٤١ .

(٢) البخارى ، ج٢ ، ص ص٨٣ ـ ٨٤ .

ﷺ : « كل عامل ميسر لعمله »[١] .

وقبل أن نأخذ ما نريد من هذه الأحاديث ، نستحضر السياق القرآنى الذي أوردت الأحاديث شاهدها منه قال تعالى : ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:١-١٠] .

السياق العام :

السياق العام لهذه الآيات مثل السياق العام لآيات سورة الإنسان وسورة البلد وسورة الشمس التى سبق ذكرها .

وهى بالإضافة إلى هذه الدلالة المشتركة تعطينا جديدًا عن ظاهرة « التيسير » التي نعنى بإبرازها هنا ، وهذا العطاء الجديد يغطى جانبين :

أولهما : تسمية الظاهرة تسمية اصطلاحية بكلمة « التيسير » اشتقاقًا من قوله سبحانه : ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ وقوله تعالى : ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ ومما يعطى هذا المصطلح معنى الاطراد وروده في آيات أخرى في غير هذه السورة ، وذلك مثل قوله تعالى في سورة عبس : ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ [عبس:٢٠] .

ومثل قوله تعالى : ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الأعلى:٨] .

واشتقاقًا من السنة أيضًا فى مثل قوله ﷺ : « كل ميسر لما خلق له » .

وثانيهما : التفسير الدقيق لمعنى كلمة « التيسير » ، ولاشك أن هذا الجانب قد تكفلت به الآيات الكريمة بما لا يدع أية شبهة تعلق بهذا الموضوع ؛ ذلك أن الآيات بيَّنت أن الناس يختلفون في اتجاهاتهم واختيارهم لأعمالهم وجاء هذا التقرير مؤكدًا بالقسم :

---

(١) رواه الإمام مسلم وابن جرير ـ مختصر تفسير ابن كثير ، ج٣ ، ص٦٤٧ .

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ١ـ٤]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ برهان واقعي على حرية الناس. والاختلاف في المسعى بين الناس، وبين المرء ونفسه، هذا الاختلاف وحده حجة قاطعة على مباشرة الاختيار الحر.

أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾، ففيه تفصيل بعد إجمال، لأن الآية التي سبقتها قررت إجمالاً أن مسالك الناس واتجاهاتهم كثيرة مختلفة، ثم جاءت الآيتان الأخيرتان تضعان النقاط فوق الحروف، فبينت ألاهما أن الإنسان حين يتجه للخير فلن يعوق حريته شئ بل سيجد التيسير لما اتجه إليه من خير: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾.

وفي الصورة المقابلة بينت الآية الأخيرة أن القاعدة تنطبق تمامًا في حالة التوجه إلى الشر، حيث لايجد الإنسان ما يعوق اختياره لهذا الطريق السيئ، بل سيجد التيسير لما اتجه إليه من الشر: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾، ويلاحظ أن كلمات «أعطى واتقى وصدق بالحسنى» شاملة لكل أنواع الخير ودرجاته، فالعطاء والتقوى والتصديق بالحسنى كلمات جوامع لأن الخير في حد ذاته أنواع ودرجات كثيرة. كما يلاحظ أن كلمات: «البخل والاستغناء والتكذيب بالحسنى» كلمات شاملات لأنواع الشر ودرجاته، وهذا التفصيل يتسق ويتفق تمامًا مع كلمة «شتى» وما تدل عليه من الطرائق والاتجاهات والمسالك الكثيرة التي يمكن أن يتوجه إليها اختيار الإنسان وجاءت مجملة في هذه الكلمة الواحدة: «شتى».

وكان هذا التركيب كافيًا لتقرير حرية المسعى من جانب الإنسان إلى أى اتجاه

يختاره ، لكن القاعدة الأخرى التى أكدتها هذه الآيات وما يماثلها كانت شيئًا جديدًا فوق الحرية ، وتلك هى قاعدة « التيسير » للإنسان فيما يتوجه إليه بسعيه من سلوك أو عمل ، سواء كان هذا المسعى خيرًا أم شرًّا .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ .

إن نعمة الحرية التى منحت للعباد ليست حرية صورية ، وإنما هى أمر وراءه حساب وجزاء . ومن هنا جاءت قاعدة التيسير لتضيف إلى نعمة الحرية ضمانًا جديدًا يحفظها ويحميها .

وإذن فالتيسير حماية أو ضمان للحرية ، وتأكيد لحكمة البلاء في حياة الإنسان ، فالجزاء على المسعى حق ، وهو إما جنة وإما نار : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم:٣٩ــ٤١] ، فلابد إذن أن تحاط حرية الاختيار بهذا السياج الذى يضمن لها جديتها كى يتحمل الإنسان فيها مسئوليته بحق وعدل .

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران:١٩١] .

ولكن ما هو جوهر التيسير من حيث واقعيته الملموسة في حياة الناس ؟ حين يتأمل المرء نفسه أو غيره من الناس في مسعاهم للخير والشر يستطيع أن يتصور نعمة التيسير في بساطة مطلقة لامشقة فيها ولا تعقيد ، ذلك أن المطيعين منهم والقصاة يسعون إلى مبتغاهم دون معوقات ، ولنأخذ مثلاً أوقات الجماعة في الصلاة ، يسعى فريق إلى بيوت الله فتحملهم خطواتهم للمساجد في أمان وتيسير ، ويتهيئون للصلاة بالطهارة فييسر الله لهم وسائلها ويتم جمعهم ويدخلون بين يدى الله في صلاتهم يقفون ذاكرين ويركعون خاشعين ويسجدون خاضعين ويسألون الله

حاجاتهم واثقين ، وينصرفون مطمئنين شاكرين . في نفس الوقت ، وقت الصلاة يسعى آخرون من الناس إلى غير جماعة المسجد ، يسعون إلى أمكنة أخرى بعيدة عن ضيافة الله ، يسعون إليها برغبتهم واختيارهم وإرادتهم ، وهنا تقتضي نعمة الحرية التي منحت لهم منحًا حقيقيًّا من خالقهم أن تيسر لهم السبل إلى ما يريدون فتحملهم أقدامهم وهي من عطاء الله يسعون بها وهذا تيسير ، فإذا وصلوا إلى أماكن لهوهم وفجورهم يسرت لهم وسائل تحقيق رغباتهم بالمال والصحة والحيلة والجاه وغير ذلك من أنعم الله عليهم وكل ذلك تيسير ، ومن هنا قيل : لا يستطيع أحد أن يطيع الله ولا أن يعصيه إلا بنعمة من نعمه سبحانه ، وهذه أبسط صور التيسيرات بين يدى الأخيار والأشرار على حد سواء ، ولكنها بداية الخيط وهي كافية كبداية لسلسلة من التطورات تستطيع تصورها في ظاهرة التيسير وهي ترتقي مدارجها نحو معونات أكثر فعالية في مجال الخير كلما تخصص للخير أهله والتزموه وأحبوه ، أو نحو استدراجات أكثر فعالية في مجال الشر كلما أدمن الشر أهله وألفوه واعتادوه .

ولكن قبل أن ننتقل بالحديث لظاهرتي المعونة والاستدراج نود أن نستوفي نقطة هامة عن التيسير تتعلق باستعمال الكلمة مناقضة للمعنى الشرعي الذي وردت فيه ، مع أن سيدنا رسول ﷺ قد وضح معنى التيسير إيضاحًا لا يسمح ببقاء هذا اللبس الخطير ، ومما يستدعي الغرابة في بقاء هذا اللبس عند بعض المسلمين أن رسول الله ﷺ استعمل المصطلح الذي اشتق من كلمة التيسير نفسها لإزالة الشبهة المتسببة في هذا اللبس .

الشبهة ودفعها :

كان الموقف مناسبًا للعظة والاعتبار فالرسول ﷺ وأصحابه في بقيع الغرقد في جنازة ، ويقول رسول الله ﷺ لأصحابه : « **ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده**

من الجنة ومقعده من النار » فقالوا : يا رسول الله : أفلا نتكل ؟ فقال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

ولا شك أن الآيتين الكريمتين اللتين استشهد بهما الرسول ﷺ هما بمثابة التفصيل للحديث النبوي المجمل الذى ضمنه رسول الله ﷺ القاعدة الكلية : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

ومعنى ذلك أن الرسول الكريم ﷺ يأمرهم بالاجتهاد في العمل حيث إن « التيسير » سيفضى بهم إلى ما اجتهدوا في الوصول إلى نتائجه من أعمال ، وعليهم أن يحذروا التراخى عن العمل بحجة الاتكال على المكتوب ، فهذه الحجة داحضة في مجال المسئولية والتكاليف ، ومن هنا آثر الرسول ﷺ في هذا المقام أن يكون تفصيل الرد على هذه الشبهة من القرآن الكريم نفسه حيث ارتبط موضوع التيسير ـ كضمان لحرية العبد في عمله ـ بنوعية الاختيار الذى يرتضيه المرء : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ .

فعلى المرء أن يجتهد ويختار ، وكيفما كان اختياره وجهده فلن يجد ما يعوق حريته في السبيل الذى سلكه ، بل سيجد كل طاقاته وإمكاناته مهيأة وميسرة لتحقيق ما يريد ، ولذلك فهو يتحمل التبعة كاملة .

على أن أحاديث أخرى تفسر الجملة التى وردت في صدر هذا الحديث وهى قوله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار » وأن المقصود هو كتابة مقعدين للعبد أحدهما خالد في الجنة والآخر في النار .

ففي الحديث الصحيح الذى رواه الإمام أحمد : « كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول : لولا أن الله هدانى فيكون له شكر ، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول : لولا أن الله هدانى فيكون عليه حسرة » .

وفي الصحيحين عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « **لايموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار إلا تحلة القسم** » يعنى الورود .

وقد أورد ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٧١ ـ ٧٢] .

مجموعة من الأحاديث والآثار تؤيد ما ذهبنا إليه في معنى الحديث ، ويترتب على ذلك أن يكون صدر الحديث الذى استدعى سؤال الصحابة لسيدنا رسول الله ﷺ إنما يقصد به ، وبالعظة والاعتبار فيه ، الحث على الاجتهاد في العمل من أجل الفوز بمقعد الجنة ، والنجاة من مقعد النار .

ونكتفى بإيراد حديث نبوى واحد مما أورده ابن كثير عند قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ﴾ .

روى الإمام أحمد عن أبى سمية قال : اختلفنا في الورود ، فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضهم : يدخلونها جميعًا ، ثم ينجى الله الذين اتقوا ، فلقيت جابر بن عبد الله فقلت له : إنا اختلفنا في الورود ، فقال : يردونها جميعًا وأهوى بأصبعه إلى أذنيه وقال : صمتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم ، حتى إن للنار ضجيجًا من بردهم ، ثم ينجى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيًّا** » .

لم يبق إذن أى مجال للشك في أن المقصود من حديث التيسير هو الحث على الاجتهاد في العمل .

ومع كل هذا الوضوح في القرآن والسنة دأب كثير من المسلمين على أن يستعملوا الحديث النبوى الشريف : « **اعملوا فكل ميسر لما خلق له** » ، بحذف كلمة «اعملوا» من أوله والاكتفاء من الحديث بقوله ﷺ : « **كل ميسر لما خلق له** »

وهم لا يقدرون للكلمة المحذوفة معناها فلا يقونه ملحوظًا في الاستشهاد، ولكنهم يقصدون معنى يتناقض كليًّا مع ذلك؛ لأنهم يستشهدون بهذه الجملة غالبًا في مواطن اليأس من العمل.

ونرجح أن السبب في هذا الخطأ إنما كان من مضاعفات السؤال التقليدى المبتدع: هل الإنسان مخير أم مسير؟ حيث اختلط على العوام من الناس اللفظان «مسير، وميسر» فأحرف الكلمات واحدة، ومن هنا نشأ اللبس.

حقًّا أن كلمة مسير تدل على الإكراه والجبر وفقدان الحرية في الاختيار، بينما تدل كلمة «ميسر» على عكس ذلك تمامًا من حيث إن التيسير كما بينا ضمان هام من ضمانات الحرية في الاختيار، ومن أجل ذلك كانت خطورة هذا اللبس في الاستشهاد بالنص الشريف في غير ما استشهد به سيدنا رسول الله ﷺ فيه. بل وفي اتجاه مخالف لدلالة النص.

وبجملة قصيرة نقول:

إن النص ورد للتحريض على الاهتمام بالعمل ورغب فيه بذكر التيسير للجهد المبذول، بينما درج كثير من الناس على استعمال النص للتقليل من أهمية العمل.

سبب آخر لهذه الشبهة:

وربما كان من الأسباب المطروحة لوجود هذه الشبهة عدم الاستيعاب الدقيق لمعنى مخالفة الله سبحانه للحوادث في الذات والصفات والأفعال، فعندما يسلم المؤمن ضرورة ـ كى تصح عقيدته ويتم إيمانه ـ بأن كل شئ يتم في الوجود مكتوب ومقدور ويحدث الخلط دون أن يدرى أو يتنبه بين المشيئة القديمة والمشيئة الحادثة، نتيجة لعدم الفقه السليم لصفة المخالفة للحوادث. فيَؤْثِرُ على الفور أن يكون الحل بالهروب من تحمل المسئولية حتى تسلم ـ من وجهة نظره ـ لله قدرته ومشيئته.

وسنفرد لهذا الموضوع بابًا كاملاً يأتى مباشرة بعد هذا الفصل إن شاء الله .

ب ـ المعونة والاستدراج

إن ظاهرة التيسير التى سبق الحديث عنها تحمل -كما رأينا - هذا المصطلح الموحد بين طرفي مجال الاختيار الحر من خير أو شر .

لكن الأمر إذا تجاوز مجرد الاختيار لواحد من السبيلين فأصبح للمرء إلفا مستقرًا وعادة مستمرة تغير حينئذ مصطلح « التيسير » من جهة ، وأضحى من جهة أخرى مصطلحين اثنين بعد أن كان واحدًا .

فمن كان مختارًا للخير وثبت على هذا الاختيار تطور التيسير المعتاد إلى مرحلة أخرى تدخل في إطار التأييد لمسيرته الطاهرة .

وحين يتخطى التيسير حجاب القواعد المعروفة ، ويخترق حاجز العادة المألوفة ، نستبدل مصطلح « المعونة » بمصطلح « التيسير » .

وتسمى هذه الظاهرة « بالمعونة » لأنها تعين العبد على طاعة الله ، وتشعره بأن الله يؤيده ويرعاه .

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ ﴾ [العنكبوت:٦٩] .

أما إذا كان العبد ـ والعياذ بالله ـ مختارًا لطريق السوء ، سادرًا فيه مدمنًا له مستديمًا عليه ، فإن درجة التيسير المعتادة تتطور إلى درجة نعوذ بالله منها ، وتسمى اصطلاحًا « بالاستدراج » ، وهى في سبيل الشر تقابل « المعونة » ، في سبيل الخير ، وما قيل فيها يقال فيه .

فالمعونة والاستدراج من الناحية الاصطلاحية يخرقان العادة ، إذ لابد في الاصطلاح العلمى من حدود فاصلة . لكن كليهما من الناحية الواقعية « تيسير » شب عن الطوق فأصبح معونة أو استدراجًا ، كالجنين تمامًا إذا نما وتطور ، فهو إذا

كان جنينًا صحيحًا أعطانا وليدًا سويًا وتلك هي المعونة كانت نتاجًا لاختيار صالح .

فإذا كان الجنين شائهًا معلولاً كبر فكبرت معه علته وشروره وذلك هو الاستدراج كان ثمرة لاتجاه فاسد الاختيار .

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:٥٨] .

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ .

[محمد: ٢٨]

في عالم الواقع المحسوس ليس هناك فواصل جامدة بين مراحل النمو ، ولا يدرى أحد متى تنفخ الروح في الجنين سوى الله سبحانه .

وكذلك هنا لا ينبغي أن تكون هذه الفواصل الجامدة حين يتحول التيسير إلى معونة أو استدراج .

من أجل ذلك كانت نصوص الوحي مرنة في حديثها عن هذه الظواهر ، وقد علمنا القرآن مثلاً أن نطلب المعونة أو العون من الله سبحانه طلبًا عامًّا سواء أتى هذا العون تيسيرًا أم معونة أم كرامة بالمعاني الاصطلاحية لهذه الكلمات ، ففي السورة التي نتلوها في كل ركعة من صلواتنا نقول : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

[الفاتحة:٥]

وبين لنا القرآن الكريم أسباب الحصول على العون الإلهي في مثل قوله تعالى : ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ﴾ [البقرة :٤٥] .

وقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ﴾ [البقرة:١٥٣] .

والتركيز على الصبر والصلاة تجعل العون لصيقًا بالأعمال ، ومباشرًا لتثبيت

حسن الاختيار إذ يكفي أن يقول ربنا في الصلاة : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥] .

وأما الصبر فأساس عريق في العبادات والفضائل ، فالصوم بما فيه من تدريب حسي ومعنوي على إلف الخير واعتياده جزء من الصبر ، وعزائم القربات كالجهاد واحتمال البلاء واجتناب الشهوات والحرمات جزء من الصبر .

وإذن فهو باب واسع مرن من أبواب العون الإلهي لعباد الله الصابرين ، وصدق الله العظيم : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨] .

هذا وقد تحدث القرآن عن « الاستدراج » دون التقيد بمسألة خرق العادة . فقد يكون الاستدراج خارقًا وقد لا يكون .

قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف:١٨٢ ـ ١٨٣] .

قال ابن كثير : معناه أن يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء . نقول : وكلها أمور ليست بالخوارق .

وقال تعالى : ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ﴾ [مريم:٧٥] .

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة مرفوعًا أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ، ثم قرأ : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢] (١) .

والخلاصة : أن ظاهرة « التيسير » التي ركزت عليها نصوص القرآن والسنة كما رأينا آنفًا ، تعتبر حلقة هامة في الاختيار الحر ؛ لأنها تكفل لهذه الحرية مزيدًا إضافيًا

---

(١) متفق عليه .

من الضمانات والحماية عن طريق تسهيلات متاحة لكلا الاتجاهين في مرحلة التيسير .

ثم إنها بعد ذلك تفضي بالاختيار الحر إلى مراحل جديدة تصل بالمرء إلى التخصص والاحتراف في الخير أو في الشر إلى درجة الانطلاق والاندفاع في الحرية بحيث يتدفق تيارها معانا أو مستدرجًا ، وكلا الأمرين : المعونة أو الاستدراج هما في الواقع إعانة على الطريق المختار ، لكن التفريق في التسمية إنما جاء للتفريق بين نتائج الخير الحسنة وبين نتائج الشر السيئة ، ولأن الأول موضع رضوان الله سبحانه والأخير موضع سخطه وغضبه .

*****